أرض الزيتون ...

جلس فى ركن قصى من الهول الواسع بعيدًا عن مرمى بصرها يراقب فتاته الشاردة بعقل شارد مفعم بالأحاسيس المضطربة.. ورأى أنها ازدادت جمالًا وأناقة.. كما رأى أنها تتعامل مع زبائنها القلائل فى البازار بلطف واضح.. هكذا كانت فى دكانها العامر بالبلد.. إذن، فهذا هو العمل الذى لاذت إليه واستوعب وقتها واستغنت به عنه .

شاهد خوجاية فى خريف العمر خفيفة ورشيقة تهبط من الدور العلوى وتتجه إلى البازار، تحدثت مع خميسة. ثم تمضى إلى عمال الكافتيريا فتتحدث مع أحدهم، ثم تدلف من أحد الأبواب وتختفى فى الداخل.. إذن، فهذه «مدام مارى».. صاحبة الفندق أو القائمة بأعمال المدير.. وإذن، فهى التى احتضنت خميسة طوال الشهور الماضية.

لم يسبق له أن جرب شرود العقل واضطراب القلب والتردد فى أن يقوم بعمل ما أو لا يقوم به.. ويالللمهزلة: فهذا العمل هو أن يتقدم من خميسة ويفاجئها بوجوده، فأول ما سوف تسأله عنه هو: كيف عثرت على؟ وإذا كذب عليها فسوف تشم رائحة كذبه، فهذه الرائحة سريعة النفاذ إلى أنفها بحكم ما قد كان..

وضع نظارته السوداء، واتجه صوبها، وقف لصيقًا برخامة الكاونتر لم تكن قد عرفته وهى مشغولة بشىء فى يدها. سمعت الواقف أمامها يطلب طلبًا غريبًا:

ـ «علبة كليوباترا على الحساب يا خميسة»

التفتت مسرعة ناحيته.. وكتمت شهقة الهلع والمفاجأة.. وتلفتت حولها.. ثم قالت:

ـ «ما دمت قد جئت فتعامل معى كأنك لا تعرفنى»

همس لها وهو يتلفت حوله كما فعلت هى:

ـ «أنا فعلًا لا أعرفك..»

فردت عليه بحزم:

ـ «وأنا لا أود أن أعرفك»

ـ «لك الحق، فهروبك منى ثمانية شهور كاملة هو أقوى دليل على ذلك»

ـ «ومن قال إنى هاربة منك.. كل ما هنالك أنك شخص غير موجود فى حياتى..»

ـ «إلى هذه الدرجة»

ـ «ليس لأنى كرهتك، ولكن لأنى كرهت نفسى عندما وثقت بك، وبعت كل من حذرونى منك وأولهم فريد هنيدى»

ـ «أفهم من هذا أن فريدًا يتصل بك»

ـ «وكيف تظن أننى كنت أتابع قضية أبى الذى دمرته.. ببلاغك الشنيع ضده»

ـ «ستعرفين الحقيقة فيما بعد.. هل فريد يزورك هنا؟»

ـ «بت أخشى أن أمدك بأى معلومات»

اقتربت منهما «مس مارى» قادمة من عمق الهول فهمس أمام خميسة: «مس مارى»

وواجه السيدة بابتسامه واسعة.. فبادلته ابتسامته وهى ترنو إلى خميسة بنظرة تساؤل.. وما لبثت أن فوجئت به يتقدم منها بأدب ويصافحها:

ـ «السيد عباس.. ابن خال خميسة.. رجل أعمال»

تهلل وجه الخواجاية :

ـ «الله.. أنت أيضًا من أقاربها.. كلكم أشخاص مبهجين.. هكذا رأيت البطل فريد و..»

فأكمل لها: «.. ورأفت..»

ثم تابع الإكمال ليثبت جدارته:

ـ «وأخوها رجب.. ولد لذيذ وذكى»

ضحكت الخواجة من قلبها:

ـ «ولكن لماذا لم تكن تحضر معهم إلى هنا؟»

ـ «أنا أسافر كثيرًا.. ولكن من الآن سوف أواظب على زيارتكم..»

ـ «إذن.. أتركككما الآن»

وألقت بنظرة نافذة إلى خميسة ومعها ابتسامة مشجعة، فهذا «الدونجوان» الأنيق يبدو لها شخصًا مختلفًا عن هؤلاء الذين جاءوا قبله..

وما إن ابتعدت مس مارى حتى التفتت إليه خميسة بغيظ مكتوم:

ـ «ما هذا الذى قلته؟ وماذا تريد منى؟ ألا يكفيك هذا الدمار الذى سببته لى..؟ »

ابتسم ببرود: «سأجيبك بشىء واحد» وراح يردد أشعاره فيها:

هى ليّة.. هى ليّة.. مستحيل هتكون لغيرى.. راضية بىّ وعايشة فىّ.. وقمحها مبدور لطيرى.. يا خميسة يا ونيسة.. ياللىّ حبك فى ضميرى..

تذكرت هذا الكلام الذى كتبه فيها.. فخُطف قلبها.. ودعم حبها.. وأغرقها فى بحر الأحلام العذبة.

ـ «أنت تذكرنى بمرض عارض شفيت منه»

ـ «أنت واهمة.. لا شفاء من الحب إلا بالزواج»

ـ «هذا دواء لا يناسبنى»

ـ «قولى ما تشاءين.. أنا أثق أنه كلام من وراء قلبك.. سأتزوجك»

ـ «أنت رجل عجيب.. أتفعل بى كل ما فعلته، ثم تأتى لتعرض على الزواج؟.»

ـ «ومن قال إننى أعرض.. أنا أتمم.. جئت أنفذ اتفاقًا رست عليه القلوب..»

ـ «أى زواج؟.. وأنا مذبوحة.. ألا ترحمنى؟..»

ـ «ارحمينى أنت..حبك هو الذى سيشفينى.. وأرجو أن تفتحى لى قلبك فى زيارتى القادمة..»

* * *

دعاها بالتليفون ـ الذى احتفظ به من اللافتة ـ أن تلحق به الآن بكازينو صفية حلمى، قررت وهى تضع السماعة ألا تثير حماقته وتهيج الجانب القاسى فى شخصه العنود.

ولما صعدت إلى غرفتها وأبدلت ملابسها، واستأذنت لساعتين أيقنت مارى بحاستها الأنثوية أن لهذه الأناقة علاقة وطيدة بقريبها الوسيم الذى كان هنا منذ عدة أيام.

وعادت بعد ساعتين بحال مختلف.. ورأس أقل صلابة.. لكنها مذهولة.. فالحب الذى ظنته وهمًا عنده، رأته الآن لم يغادر قلبه منذ أن كتب فيها شعرًا.. أما الدموع التى لمعت فى عينيه وهى تروى له عن أحزانها الحالكة التى عاشتها فى الأيام الأولى لهروبها من البلد، فقد أكدت لها أنه ما زال يحمل قلبًا رقيقًا.. روت له رحلتها منذ ألقت بنفسها فى أول لوكاندة رخيصة بمحطة مصر.. ولم تكن تخرج إلا لكى تبحث عنه عند المطابع وتعود فارغة.. وكيف كانت تقضى باقى نهارها وكل ليلها حبيسة الغرفة.. خائفة من الناس.. خائفة من الشوارع.. خائفة من سرقة أموالها.. تمعن فى غلق بابها على نفسها وهى تسمع عبر الحوائط المجاورة كل ما يجرح المشاعر ويقزز النفوس.. «هل هذه هى القاهرة..؟» ثم قابلته وعادت باكية لا ترى لنفسها أملًا فى شىء قريب، أو خطة بيدها، أو فعلًا ما يمكنها أن تقوم به..

كان صاحب اللوكاندة العجوز يراقب زبونته الشابة الرائقة التى لا تخرج من غرفتها إلا نادرًا ثم تعود ببعض الملابس المبتاعة توًّا، عرف أنها عندما قصدت المبيت عنده لم تنم إلا جالسة ليلتها.. فلم يكن معها حقيبة ملابس.. وعرف أنها فيما بعد راح تكوّن هذه الحقيبة بالقطاعى..

سألها:

ـ «ما بك يا ابنتى؟»

ـ «لا شىء يا سيدى..»

ـ «أراك وحيدة تائهة.. عم تبحثين؟»

ـ «أبحث عن نفسى..»

ـ «لن تجديها ما دمت فاقدة التركيز»

ـ «وكيف يتسنى لى ذلك؟»

ـ «حددى مطلبك القريب.. لا توهمى نفسك بمطلب بعيد..»

ـ «أريد عملًا..»

ـ «اتركى لى هذا الأمر.. أمعك شهادة؟»

ـ «الثانوية العامة..»

ـ «خيرًا.. إن شاء الله..»

وشاء الله أن يأتى الخير على يدى عجوزها الطيب عندما قال لها:

«ارتدى أفضل ما عندك وتعالى معى». وسيرًا على الأقدام.. وصلا إليها .. «السيدة مارى».

ـ «هذه هى خميسة..»

عرفت أنه يؤدى معها مشواره الثانى إلى هذا الفندق الأوسع.. والأجمل.. والأفضل..

وانتهت المقابلة الحميمة بوعدٍ منها لصاحبة العمل:

ـ «أوراقى فى الكلية.. سأنسخ لك صورة منها».

«مارى الآن صاحبة عملى.. وأختى الكبرى.. وصديقتى.. فاضلة.. رقيقة.. لم تسألنى عن أمر يشغلها نحوى إلا إذا تحدثت عنه بخاطرى.. ولذا فهى لا تعرف قصتى معك.. وقصتنا مع أبى.. لكنها شاهدت تباعًا استدعائى لرأفت أولًا بخطاب.. ثم حضوره مع رجب فى سرية.. ثم حضورهما مع فريد هنيدى.. قلت لها: إن أبى مات.. وأمى ماتت من زمان.. يا مدام مارى»

استدعى طبقة الحنان فى حنجرته، وقال لها:

ـ «يا خميسة.. أنا أبوك وأمك وزوجك.. وحبيبك.. سأذهب إلى أبيك بالسجن.. وأخطبك منه.»

قالت له معترضة:

ـ «أنت الأحق بالاعتقاد أن أبى قد مات.. وليس مدام مارى.. انس أبى..»

ـ «إذن، سأخطبك من مدام مارى..»

ـ «دعنى أفكر»

ـ «تفكرين فى ماذا؟»

ـ «فى إمكانية الزواج بك.. رغم أنى أكرهك»

* * *

قال لنفسه:

ـ «خميسة لن تعود إلىّ بسهولة، خميسة الآن محاطة بفريد هنيدى المفتون بنفسه، ورأفت إبراهيم الغلبان، الذى يبحث عن نفسه، وبينهما رجب عفيفى الصبى المتورط فى مشاهدة أحداث أكبر من أن يستوعبها. ليس لى إلا «مس مارى».. هى التى ستجمع شملى بها..»

فى اليوم التالى قصد البنسيون فى طابقه السفلى وجلس فى ردهة الانتظار، وإلى أن ظهرت الخواجاية فى الطابق ـ الذى لا تسكنه خميسة ـ كانت منفضة السجائر أمامه قد امتلأت بالأعقاب.

لمحته من بعيد، فأرسلت بصرها إلى الطابق العلوى كأنها تقول له: «فتاتك هناك .. فى الأعلى» أسرع فأفهمها أنه جاء لمقابلتها بعيدًا عن خميسة.. وأنه يمر بأزمة فى علاقته بها:

ـ «وأنا بحاجة إلى وقوفك معى، وسوف تنيرين لنا طريقنا معًا.. أنا وخميسة..»

ـ «ما هى خميسة بالنسبة لك؟»

ـ «حبيبتى.. وخطيبتى..»

ـ «لم تقل لى إنها مخطوبة..»

ـ «هذه هى المشكلة.. لأنها فسخت الخطبة من طرف واحد..»

ـ «يخيل لى أنكما تقابلتما بالأمس..»

ـ «جلسنا لساعتين.. والنتيجة صفر.. أرجوك التدخل، فأنت أهم ما فى حياتها كما قالت لى.»

ـ «أوه.. خميسة؟ صارت قطعة منى.. ستظل معى حتى تحصل على الليسانس، هذا إذا

واصلت أنا الحياة بمصر»

ـ «أنا فى سباق مع الوقت. فظهور فريد هنيدى ورأفت إبراهيم هنا أثار غيرتى وخوفى أن يكون أحدهما قد استمالها»

وسرحت مارى ببصرها بعيدًا.. ثم هزت رأسها خفيفًا ونظرت فى ساعتها:

ـ «عندى موعد مع صديقتين فى حلمية الزيتون.. تعال معى نتحدث سويًا فى سيارتى حتى هناك .. انتظرنى أسفل الفندق الساعة السادسة ما هذا؟.. هل دخنت كل هذه السجائر؟»

* * *

جلس بجوارها فى سيارتها الفيات الصغيرة فسألته عن الأعمال التى يقوم بها، وكان من السهل أن تسعفه قريحته النشطة بعدد من النشاطات المتعددة بدأها بتجارة الموبيليا، ثم انتقل إلى نشاطات مخترعة، فراح يتحدث عنها بكفاءة تامة بدأها بالتجارة فى المحاصيل الزراعية التى تكلفه القيام بالسفر فى سائر المحافظات فى مختلف المواسم، وأنهاها بالسمسرة فى العقارات.

رمقته السيدة مارى بإعجاب شديد:

ـ «أرى أنك شاب مكافح وذكى، فما الذى لايعجبها فيك.. خميسة؟»

ـ «إننى دبلوم صنايع، وإنها جامعية ستحصل على الليسانس.»

ـ «بسيطة، أحصل أنت الآخر مثلها على الليسانس.»

ـ «تلك هى المشكلة، ليس لدى وقت أو طموح علمى.. طموحى كله اقتصادى..»

ـ «هل هذه هى المشكلة؟..»

ـ «قام بعض الناس بوضع وقيعة بينى وبينها.. إننى تعرفت على فتاة أخرى..»

ـ «لعلك تقصد هذا البطل المتناسق فريدًا وزميله رأفت»

ـ «ليس هذا وقت الحساب معهما، لن أشغل نفسى بهما»

ـ «لكن يبدو لى أنك فعلًا تعرفت على فتاة أخرى مما أثار غيظ خميسة..»

ـ «بصراحة نعم.. لكنى أنكرت ذلك عنها..»

ـ «وماذا عن البنت الأخرى.. هل مازلت على علاقة بها..؟»

ـ «الأخرى لا تصلح لى.. وأن ما ربطنى بها كان نزوة عابرة.. لذلك ودعتها إلى الأبد..»

تنهدت السيدة مارى بارتياح ، ولاحت له فرصة التحدث معها بموضوع آخر كان يشغله:

ـ «لماذا قلت لى إنك قد لا تواصلين الحياة بمصر؟»

ـ «هذا موضوع يطول شرحه..»

بادلها الصمت قليلًا، ثم عاود اقتحامها: «هل هناك ما يضايقك؟»

ـ «تستطيع أن تطلق على ما نحن فيه كلمة الخوف وليس الضيق»

ـ «إذن، فأنت لست بمفردك؟.. أراك تتحدثين بصيغة الجمع»

ـ «كلنا..»

ـ «من أنتم..؟»

ـ «نحن أصحاب الأملاك.. الأجانب الذين يعيشون هنا. هل فهمتنى؟»

ـ «أجل.. فهمتك.. موضوع التأميم الذى بدأه عبد الناصر»

ـ «ها نحن قد وصلنا..»

قاطعته وهى تقف بسيارتها أمام فيلا من دورين محاطة بسور طويل يجمعها بأرض واسعة.. هاله أن السور يمتد حتى نهاية الشارع.. وتناهى إلى سمعه نباح كلب بالداخل.

هبطا من السيارة فى وقت واحد ليلحق بها.. تقدمت نحو البوابة الموارية.. أخذ يتأمل قوامها الممشوق والجوب الواسع ذا الكسرات الحادة والبلوز الزهرى، تمهلت حتى يقترب منها وهمست له:

ـ «صديقتاى تعيشان وحدهما فى هذا المحيط.. لا يؤنسهما سوى هذا الكلب..»

أرسل بصره عن يمينه فهاله هذا الفراغ الممتد الذى ينتهى بسور بعيد فسألها:

ـ «كل هذه الأرض تتبع هذه الفيلا..؟»

ـ «خمسة أفدنة..»

لمح سيدة تخرج إلى الفراندة باحثة عن الضيف القادم بعين كليلة ظللتها براحتها لتتبين ضيوفها فى غبشة المغرب، فعلا صوت مارى:

ـ «أنا مارى يا أبلة بشاير ومعى ضيف عزيز.. اتفضل يا أستاذ سيد»

وفى صالة الاستقبال الواسعة راح يتأمل البراويز المذهبة الضخمة التى تحمل صورًا لبكوات وبشوات عظام بالطرابيش على رءوسهم، والشوارب المفتولة فى وجوههم، والابتسامات الهادئة على شفاههم، ثم تعلق بصره بلوحة زيتية مستطيلة لصائد يمسك ببندقيته وعلى رأسه قبعة يركض خلف كلابه التى تعدو مسرعة نحو طائر يسقط جريحًا مخضبًا بالدماء.. كان الرسام بارعًا فى تجسيم ملامح فرحة الصياد، ولوثة الكلاب وانكفاء الطائر المقهور..

تحركت حاسة الشاعر بداخله، وراح يفسر معنى هذه اللوحة، ووجد أنها تلخص معركة الحياة والبشر، فهناك الصيادون والمصطادون وهناك الكلاب التابعة ثم الطيور البريئة، هناك من يحسن التصويب فله الحياة، ومن يتقى الإصابة فله النجاة، أما من يصاب فله الموت والندم؛ لأنه لم يشرع سلاحه أولًا..

أفاق على مدام مارى تخاطب مضيفتها بشاير:

ـ «لم أسمع صوتًا لأبله حكمت.. هل هى نائمة؟»

أجابتها بشاير:

ـ «تعانى من صداع، ولو عرفت أنك هنا فسوف تتحامل على نفسها وتحضر.. لم تقدمى لى ضيفنا العزيز.. هل أنت صحفى؟»

أمسك برباط عنقه الحريرى، وتنحنح بحثًا عن إجابة فسبقته السيدة مارى بالإجابة:

ـ «إنه رجل أعمال.. يمت بصلة قرابة لخميسة»

رفعت بشاير حاجبيها دهشة:

ـ « وأين كنت؟.. لم نرك من قبل.. خميسة إنسانة مهذبة ولطيفة فيم تعمل؟..»

ـ «أعمال متعددة.. تعرفها مدام مارى.. تجارة الموبيليا.. والحبوب ومواد البناء..»

ـ «أنت صغير.. كيف أمكنك أن تتولى كل هذه الأعمال؟»

وما إن خرجت بشاير لتحضر لهما مشروبًا حتى اقتربت منه مارى:

ـ «يمكننا أن نكمل موضوع خميسة.. فما الذى يمكننى أن أقدمه لك؟.»

سرح ببصره قليلًا، ثم قال لها بشكل مفاجئ:

ـ «فلنؤجل ذلك الآن.. السيدة بشاير.. والسيدة حكمت.. هل يمتان لك بصلة قرابة؟»

ـ «هن تركيات .. وأنا يونانية .. نشأنا هنا فى مصر منذ الصغر..»

ـ «وهل هن يسمعن نصيحتك؟»

ـ «طبعًا..»

ـ «إذن، فلماذا لا تنصحينهما باستغلال هذه المساحة من الأرض المحيطة بالفيلا؟»

ـ «وكيف يمكنهما ذلك؟ هل لديك ما يمكن أن ننصحهما به»

ـ «المهم أن يوافقا على مبدأ استغلال هذه الأرض.. والأفكار الكثيرة..»

هكذا قال لها، وجلس ينتظر إجابتها إلى أن تحدثت:

ـ «قبل الثورة بعامين كان أخوهما الوحيد سيشرع فى إقامة عدد من الفلل بنفس طراز هذه الفيلا لكن القدر لم يمهله ومات فى حادث.. كم قدمت لهما النصيحة أن يعرضاها للبيع ولم يتشجعا خوفًا من الرجال».

ـ «أى رجال؟»

ـ «الأزواج.. كل واحدة كانت تملك زوجًا كزوج الأحذية، تخلصا منهما بسهولة واحدًا عقيمًا زوجته سليمة، وواحدة عاقرًا زوجها سليم!!»

ظهرت بشاير عند مشارف الصالة تحمل صينية فضية عليها أكواب الشاى. هَب من جلسته فى رشاقة وأدب وحملها عنها ووضعها على المنضدة، فقالت مارى:

ـ «الأستاذ السيد يلومنى لأنى لم أجد لك مشروعًا لاستغلال أرضك الفضاء هذه..»

أطرقت بشاير برأسها قليلًا.. ورفعت رأسها نحو السيد:

ـ «من يمكنه أن يجرؤ على التفكير فى مشروعات ونظام التأميم يمضى على أشده..»

أجابها مسرعًا:

ـ «هذا أدعى للأخذ برأيى.. لا تتركوا هذه الأرض خالية، حتى لا تأخذها الحكومة»

تبادلن النظرات بما يعنى أن هذا الأمر كان مطروحًا بينهما إلى أن سألته بشاير:

ـ «هل ممكن لجمال عبد الناصر أن يفكر فى ذلك؟»

ـ «لا أدرى، ومع هذا فلا مانع من التحوط»

اعتدلت بشاير فى جلستها أمامه، ثم تعلقت ببصرها نحو مارى:

ـ «يبدو أن بيعها هو الأفضل، ولكن من يمكنه أن يشترى هذه المساحة الكبيرة»

اختار أن يسرع بالانصراف بعد تناول الشاى:

ـ «عن إذنكم.. عندى عمل.. وإذا توصلتما إلى فكرة سأتصل بكما..»

ألقت براحتها فى الهواء.. كأنها تهش ذبابة:

ـ «أى شىء تفكر فيه لنا أعرضه على مارى أولًا.. هيا بنا يا مارى إلى حكمت فى سريرها.. سعيدة يا ولدى..»

* * *

وعندما وصل إلى الميدان جدّ فى البحث عن تليفون ليتحدث منه مع خميسة:

ـ «أنا السيد.. سأقول لك شيئًا واحدًا.. أنا اختصرت الطريق وأدخلت مارى فى موضوعنا..»

ـ «وماذا قلت لها؟»

ـ «لا تخافى.. قلت لها إنى كنت خطيبك.. وأخطأت فى عمل علاقة مع فتاة أخرى.. وأنت تشترطين على الحصول على شهادة جامعية..»

ـ «متى تحدثت معها؟»

ـ «فى الطريق إلى فيلا حكمت وبشاير بالزيتون»

ـ «ووصلت إلى هناك أيضًا؟»

ـ «وسأظل هناك..»

ـ «ماذا تقصد؟..»

ـ «بشاير طلبت منى أن أبحث لها عن مشروع لـلأرض المحيطـة بـالفيلا.. فـلا تـتخلى عنى..»

ـ «أنا لا أثق بك..»

ـ «الله يسامحك.. »

ـ «ابتعد عن طريقى يا سيد»

ـ «لن أبتعد؛ لأنى عثرت عليك بمعجزة»

ـ «ليس أمامى إلا الاستنجاد بفريد هنيدى»

ـ «لو تعرض لى سأقتله..»

ـ «أنت مجنون»

ـ «حتى الآن ما زلت محتفظًا بعقلى الهادئ»

ـ «لن أعبأ بتهديدك»

ـ «كما يحلو لك.. لا تتحدثى مع مارى بشأنى إلا إذا تحدثت هى معك..»